

الدولة الغزنوية ودورها في نشر الإسلام

في شبه القارة الهندية

للدكتور / أحمد الخولي

أستاذ مشارك

بقسم التاريخ بكلية الشريعة واللفة العربية بالقصيم

الدولة الغزنوية

ودورها في نشر الاسلام في شبه القارة الهندية

تمهيد :

لم يكن انتشار الاسلام في المنطقة الواقعة خلف نهري سيحون وجيحون (السند^(١)) إلا نتيجة لغزوات بدأت في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، وتأكدت في زمان خلفه الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنهما، وانتهت في عهد مؤسس الخلافة الأموية معاوية بن أبي سفيان إلى إخضاع المنطقة الواقعة بين (الملتان وكابل) ثم وصلت إلى ذروتها في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك^(٢) على يد قائده الشهير محمد بن القاسم الثقفي بطل السند^(٣)، والذي لم يكتب لقائد من بعده أن يصل إلى المدى الذي وصل اليه توغلا في شبه القارة الهندية حتى أيام الغزنويين.

(١) السند : هي المنطقة الواقعة شرقي ايران على ساحل بحر الهند، وهي دلتا نهر السند (الأندوس) التي تمثل مدخل القارة الهندية .

(٢) لايسهب المؤرخون في الحديث عن الفتوح الإسلامية في منطقة السند قبل خلافة الوليد بن عبد الملك لأن بعضهم لا يكتثروا بأخبار الفتوح، فيما عدا البلاذري الذي وقع عليه العبء، فيذكر في كتابه فتوح البلدان حملة قام بها المغيرة بن أبي العاص إلى خور الديبل «هي المنطقة التي تقع فيها كراشي» في خلافة عمر بن الخطاب. ثم يذكر في كتابه أيضا أن الخليفة عثمان بن عفان طلب من واليه على العراق عبدالله بن عامر أن يستطلع الأحوال في ثغر الهند، وفي أواخر عام ٣٨ هـ وأول عام ٣٩ هـ، وفي خلافة علي بن أبي طالب قام الحارث بن مرة العبدي بغزو ثغر الهند... ولكنه قتل عام ٤٢ هـ. وفي أيام معاوية عام ٤٤ هـ قام المهلب بن أبي صفرة بعمليات عسكرية ، وولى معاوية بعد ذلك عبدالله بن سُر العبدي الذي تابع ما قام به المهلب، ثم كان الاستيلاء على مكران زمن ولاية عبيد الله بن زياد على العراق، واستمر الحال على ذلك - فيما يسميه العرب - بتوالي الحملات علي «ثغر الهند» حتى مطلع خلافة الوليد ... أنظر فتوح البلدان للبلاذري جزء ٥ ص ٦٠٧ وما بعدها .

(٣) أنظر قصة بهذا الاسم.. تأليف محمد عبدالغني حسن، ضمن سلسلة أقرأ الصادرة عن دار المعارف بمصر .

وقد بدأ الفتح الإسلامي لهذه البلاد يأخذ أكمل صورة وأوسع مدى حين ظهر الغزنويون الأتراك في أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وطفقوا يطرقون أبواب شبه القارة الهندية، ويتوغلون فيها بعد أن أقاموا لهم بخارجها دولة واسعة ضمت فيما ضمت غزنة، سيستان، لمغان، خراسان ... وأغلب بلاد ماوراء النهر^(٤).

وفما بين ابتداء العرب المسلمين لهذه المسيرة، مسيرة غزو شبه القارة الهندية، وإكمال الترك المسلمين لها رباط واحد وقاسم مشترك ألا وهو ديننا الإسلامي الحنيف^(٥).

وقد شاهد العالم الإسلامي في الفترة ما بين الفتحين العربي والتركي للهند أحداثا خطيرة ومتنوعة، فقد زالت الخلافة الأموية تاركة الحكم للعباسيين الذين نقلوا العاصمة من دمشق بالشام إلى بغداد بالعراق، وأخذوا يعتمدون على العنصر الفارسي في المناصب المدنية وعلى الترك في المناصب العسكرية.

ومن هنا بدأ لهذين العنصرين أنه من الممكن الاستقلال بالحكم وانقلب التنافس بينهما على المناصب إلى تنافس في تأسيس دول قائمة بذاتها، لها كياناتها السياسي وسيادتها الإقليمية في الشرق من العالم الإسلامي، وإن ظلت هذه الدول تخضع معنويا للخليفة العباسي في بغداد وقد جعل ذلك المشرق الإسلامي يعيش منذ عام ٢٠٥ هـ - ٨٢٠ م حتى الغزو المغولي الذي أطاح بالخلافة العباسية في عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م بين التبعية والاستقلال^(٦).

ولأن الغلبة في السيطرة على المناصب في العصر العباسي كانت للفرس أولا ثم انتقلت إلى الترك، فقد كانت أولى الدول التي تأسست في المشرق الإسلامي هي

1 - Panikar, K.M.A survey of Indian History, Asia Publishing House. Bombay, 1963, P. 117 .

(٥) يقول الله عز وجل في محكم آياته «يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير» سورة الحجرات آية : ١٣.

(٦) على إبراهيم حسن التاريخ الإسلامي العام، ص ٤٦٢ وما بعدها.

الطاهرة^(٧) والصفادية^(٨)، ومن بعدها السامانية^(٩)، وكل مؤسسيها في الأصل فرس خلص، ثم تمكن الترك من التغلب على الفرس وإقامة أول كيان سياسي لهم متمثلاً في الدولة الغزنوية فالسلجوقية^(١٠) فالخوارزمية^(١١) التي تقلصت بالغزو المغولي للعالم الإسلامي، ومن هنا يمكن القول ان الميزان كان متكافئاً بين الفرس والترك في تأسيس الدول في المشرق الاسلامي.

(٧) الدولة الطاهرية.. أسسها طاهر بن الحسين عام ٢٠٥ هـ / ٨٢٠ م وهو الذي ساعد المأمون في تولي الخلافة العباسية ، وقد أنقضت الدولة الطاهرية على يد يعقوب بن ليث الصغار في عام ٢٥٩ هـ / ٨٧٣ م، وعلى الرغم من أن الطاهريين إيرانيون إلا أن اللغة العربية ظلت لغة الدولة الرسمية، كما أن الأدب العربي ظل محط اهتمام الأمراء الطاهريين الأول .. وهناك رواية تؤيد ذلك، وهي أن عبدالله بن طاهر كان يجلس في يوم ما في عاصمة دولته فيسابور ، فأحضر اليه بعض الناس كتاباً وقدموه اليه، وكان هذا الكتاب قصة قديمة منظومة بالنهلوية تدعى «وامق وعذرا» إلا أن عبدالله بن طاهر رفضها وقال: «نحن قوم نقرأ القرآن ولا نريد غير قراءة أحاديث الرسول، ولا حاجة بنا الى مثل هذا الكتاب، لأنه من تواليف المجوس، وهو مردود لدينا..» ثم أمر بهذا الكتاب فألقوه في البحر وأمر بحرق الكتب المجوسية «للحصول على معلومات أوفر عن هذه الدولة أنظر فتحي أبوسيف: المشرق الإسلامي بين التبعية والاستقلال، أولاً الطاهريون تاريخهم السياسي والحضارى. القاهرة ١٩٧٨ م.

(٨) قامت هذه الدولة بقيادة يعقوب بن الليث الصفارى على أنقاض الطاهريين عندما سقطت فيسابور عاصمتهم في خراسان في عام ٢٥٩ هـ / ٨٧٣ م، وقد أنحصرت قوة هذه الدولة في شخصية مؤسسها يعقوب وانتهت تقريباً بوفاته .. للحصول على معلومات أوفر عن هذه الدولة الصفارية (يعقوب بن ليث الصغار) ترجمة فتحي الرئيس (دكتور) القاهرة ١٩٧٧.

(٩) الدولة السلجوقية تأسست عام ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م، واعترف الخليفة العباسي (القائم بأمر الله) بطغرل أول ملوكها في رمضان عام ٤٤٧ هـ / ديسمبر ١٠٥٥ م للحصول على معلومات أوفر عن هذه الدولة انظر سلاجقة إيران : عبدالنسيم حسنين (دكتور) القاهرة ١٩٧٣ م، ويقول (ستانلي لين بول) في كتابه Mohaummedan Dynasties «إن ظهور السلاجقة الأتراك يعتبر فاتحة لفترة هامة من فترات التاريخ الاسلامي، فقد تمكنا - بغض النظر عن أمور أخرى، من أن نجد العزم والحياة في أرواح المسلمين بعد ما فترت عزائمهم وحدثت حماستهم بأن دفعوا البيزنطيين الى ما وراء حدودهم، وأنشأوا جيلاً من المسلمين المحاربين المخلصين، يرجع اليهم الفضل فيما أصاب «الصلبيين» من هزائم كثيرة متكررة، وهذا يجعل للسلاجقة مكاناً ممتازاً في التاريخ الاسلامي .

(١٠) الدولة الخوارزمية تأسست بزعامة اتسز في عام ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م في خوارزم ... للحصول على معلومات أوفر في هذه الدولة انظر حافظ حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول .. القاهرة ١٩٤٩ م.

(١١) هم الإيلكانيون قوم بغراخان قشغر الذي دخل وقومه الإسلام في القرن الرابع الهجرى وتسمى باسم هارون بن سليمان (حزمة طاهر : مجلة الثقافة عدد ١٩٤٧/١٩٦٩ - مقال عن السلاجقة).

مؤسس الدولة الغزنوية :

لما عظم شأن الترك في شرق العالم الاسلامي، ورثوا ومعهم القره خانيون دولة بني سامان الفارسية، ودفع الطموح الغزنويين الى التطلع للفتح والغزو، فولوا وجوههم شطر شبه القارة الهندية فمن هم الغزنويون؟

مؤسس الدولة الغزنوية هو سبكتكين^(١٢) الذي كان غلاما لألبتكين صاحب غزنة، جلب من التركستان إلى بخارى ثم انتقل الى نيسابور حيث خلف سيده عليها عام ٣٦٧ هـ / ٩٦٦ م.

كان سبكتكين يتصف بروح الطموح وقوة العزيمة، فعرف كيف يوحد صفوف الأتراك والأفغان في إمارته، ويسيرهم لفتح لمغان وسيستان وخراسان ثم ينقلب بهم بعد ذلك مندفعاً عبر مسالك الهندكوش الوعرة المسالك هادفاً غزو بلاد الهنداكدة.

وقد كان سبكتكين مستقلاً عن السامانيين من الناحية العملية، على الرغم من أن مولاه البتكين كان حاجباً لهم، وهم الذين نصبوه على غزنة.

وحيثما التقت جنده بجيش «جيبال راجاهانده» الذي كان يحكم مملكة واسعة تمتد من الكنج إلى بلاد الأفغان، ومن كشمير إلى الملتان روع الهنداكدة، فأرسل حاكمهم يعرض

(١٢) يذكر بعض المؤرخين أن سبكتكين هو من أحفاد يزدجر الثالث آخر ملوك فارس قبل الاسلام وأن أسرته كانت بالتركستان في عهد عثمان بن عفان لاجئة فاختلطت بأهلها ثم تتركت .. وهذا قول مرفوض ذلك أن أغلب الموالي الذين بلغوا رتبة الإمارة قد ادعوا لأنفسهم مثل هذا الادعاء طلباً لعراقة النسب (أحمد محمود الساداتي (دكتور) تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندوباكستانية وحضارتهم ص ١٤ هامش ٢ . القاهرة ١٣٩٠/١٩٧٠ وقد ورد في تاريخ البيهقي - نقله الى العربية يحيى الخشاب (دكتور) وصادق نشأت ص ٢١٦ - ٢١٨ ، بيان شامل عن شجرة .

الصلح مقابل جزية كبيرة مع الاعتراف بسيادة الأمير الغزنوي، غير أن محموداً صرف أباه سبكتكين عن قبول عرض الحاكم الهندوكي حتى لا يبيع الجهاد في سبيل الحق .

ولكن جيبال لم يقنط أو ييأس لدى بلوغه النبأ، فأرسل الى سبكتكين يخبره أن الهنادكة لا يهابون الموت اذا ما نزلت بهم نازلة، وأنهم سيفقأون أعين أفيالهم ويلقون بأطفالهم في النار ويخربون بيوتهم بأيديهم ثم يزهقون أرواحهم بسيوفهم ورماحهم، فلا يجد المسلمون حين يدخلون ديارهم الا خرائب وجيفة.

وبينما قبل صاحب غزنة الهدنة على جزية مقدارها ألف ألف درهم وخمسون فيلا مخصصين للحرب وقدر من الحصون والبلد ان حنث الأمير الهندوكي بعهده، وزج بفريق من رجال غزنة في السجن كانوا يصحبونه لمراقبة تنفيذ الاتفاق وأبقاهم عنده عوضاً عن رهائنه لدى سبكتكين، ولكن أخبار الخيانة والغدر أثارت ثائرة الحاكم الغزنوي فانطلق من فوره الى أرض عدوه^(١٣).

وعلى الرغم من التفاف أصحاب أجير ودهلي وكالنجر وقنوج حول «جيبال»، وما تهيأ لهم جميعاً من جند كثيف نيف على مائة ألف من المقاتلين، فقد أنزل سبكتكين بعصبة الأمراء الراجتييون هزيمة ساحقة، اضطروا من بعدها الى طلب الصلح على أموال كثيرة طائلة. عدا مائتين من الفيلة وعشرة آلاف من رؤوس الخيل سبقت كلها إلى بشاور^(١٤).

وقد أدار صاحب غزنة دفة القتال بمهارة فائقة، إذ عبأ جنده القليل في وحدات قوام كل منها خمسمائة من المقاتلين طفقوا يتبادلون مراكزهم في الجبهة حتى ارهقوا عدوهم فأجهزوا عليه^(١٥).

(١٣) أحمد محمود الساداتي: المرجع السابق ص ٦٥ .

(١٤) تاريخ العتبي على هامش الفتح الوهبي ص ٨١ ، ٨٦ .

(١٥) أحمد محمود الساداتي : المرجع السابق ، ص ٦٥ .

ولم يكن هذا الانتصار لصاحب غزنة ذا نتيجة واحدة فقد تعددت النتائج، وأعلنت قبائل الافغان الخلع عصيانها، ولزمت طاعت الحاكم الغزنوى والولاء له.

وإن كانت حروب سبكتكين الهندية هذه مجرد غزوات إلا أنها مهدت سبيل الفتح أمام جيوش المسلمين فيما بعد -

محمود الغزنوي :

مات سبكتكين في شعبان في عام ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م بعد أن أستمّر في حكم البلاد عشرين عاما. وترك من ورائه مملكة واسعة قوية.

وكان هذا الامير الغزنوي قد عهد قبل وفاته بالحكم الى ابنه الضعيف اسماعيل، على الرغم مما عرف من اعتداده بابنه الاكبر عين الدولة محمود، اعتدادا شديدا، وكان يروى للناس أنه رأى في المنام قبل مولد هذا الابن شجرة نبتت فجأة في حديقة داره، فأخذت أغصانها تمتد في كل ركن حتى أظلت العالم أجمع^(١٦).

كان طبيعيا ان يسترد محمود الحكم من أخيه وينفرد به بعد وفاة أبيه بأشهر قليلة .

ومالبت محمود أن ورث ملك السامانيين كله في خراسان وبلاد ماوراء النهر، كما قضى على سلطان البويهيين^(١٧) في الري، وهزم السلاجقة والقرة خانيين، وتوغل في بلاد فارس وسيطر على إقليم قزوین، كما فتح الغور في الهندكوش بين غزنة وهراة، ونشر الإسلام بين أهلها على نطاق واسع لأول مرة .

ولقد راح محمود يعلن، منذ أول عهده بالحكم، أنه قد أخذ على عاتقه الجهاد بسيفه في سبيل نشر تعاليم الاسلام الصحيحة والقضاء على الفرق المضللة من رافضة وقرامطة وغيرهم، وكان يكتب إلى الخليفة العباسي في إثر كل نصر يحوزه فيحصل منه التشجيع والتعزید والدعاء.

(١٦) أحمد محمود الساداتي : المرجع السابق ، ص ٦٦ .

(١٧) البويهيون حكموا في الأقاليم الجنوبية والجنوبية الغربية من البلاد الفارسية وأصبح لهم الحق المطلق في بغداد والسيطرة الفعلية على الخليفة بحيث أضحي في الواقع آلة في أيديهم يحركونها كيف يشاءون، وكان وزيرهم الصاحب بن عباد من أشهر رجالات الأدب في عصره، يقول عنه بن خلكان واجمع عنده من الشعراء ما لم يجتمع عند غيره ومدحوه بغرر المدائح ولمعرفة المزيد عنه ارجع الى الثعالبي في يتيمة الدهر طبع بيروت ج٣ ص ٣١، ٣٢.

وهكذا امتد سلطان محمود إلى آفاق بعيدة، وذاع صيته في أنحاء البلاد الإسلامية.. ثم ولي هذا القائد المسلم وجهه شطر شبه القارة الهندية حيث رأى فيها ميدان الجهاد الأكبر^(١٨) فغزاها سبع عشرة مرة على مدى سبعة وعشرين عاما بين عامي ٣٩١ هـ/ ١٠٠٠ م و٤١٧ هـ/ ١٠٢٦ م . إلى أن دانت له هذه البلاد من بنارس إلى غزنة ومن الهملايا إلى الدكن.

(١٨) أحمد محمود الساداتي: المرجع السابق، ص ٦٧.

غزوات محمود في الهند :

تشلت أولى غزوات محمود في الهند في احتلال بعض الحصون عند الحدود فولاها بعض رجاله، ولكنه عاد الى الهند في شوال عام ١٠٠٠/٣٩١ م على رأس عشرة آلاف مقاتل لاقى بهم جيش عدو ابيه جيبال راجا بهاتنده عند بشاور، وكان الأخير في إثني عشر ألف من الفرسان وثلاثين ألفا من المشاة مدعمة بثلاثمائة من الفيلة ودام القتال بين الفريقين مايقرب من ستة أشهر كان محمود قد أباد خلالها خمسة عشر الفا من الهنادكة ووقع قاندهم ونفر من أتباعه في أسر السلطان الغزنوي^(١٩).

وبينما كان محمود قادرا على قتل من بأسره الا أنه وافق على إطلاق سراحهم مقابل أموال طائلة وعدد من فيلة الحرب ونفر من الرهائن من بينها ابن «الجيبال» حاكم لاهور وأحد حفدته، ذلك أنه رأى أن مغام الحرب أنفع وأبقى له خاصة وأن الهنادكة لم يعودوا ممكن خطر بالنسبة له بدليل أن قائد الهنادكة لم يقو على تحمل عار الهزيمة فعرض نفسه على النار وفق رسوم قومه تكفيرا له عما ناله من هزائم متلاحقة أمام الغزنويين .

وارتحل محمود الغزنوي في غزوته الثالثة عام ٣٩٥ هـ / (١٠٠٤ - ١٠٠٥ م) إلى بهيرة على مقربة من روافد السند وضمها إلى ملكه ثم انتقل إلى الملتان مقر أبي الفتح القرمطى الذى عرض الصلح على محمود بجزية سنوية مقدارها عشرون ألف درهم من الذهب.

كان بوسع محمود أن يواصل مسيرته غازيا في سبيل الله واعلاء كلمة الإسلام، الا أن أخبارا وصلتته بأن أمير قشغر يهاجم أملاكه فأثر العودة الى قاعدته تاركا فتوحاته في الهند في عهدة واحد من حفدة «جيبال» كان قد انضم اليه وأسلم على يديه وهو ماتتعارف المصادر العربية على تسميته (نواسه شاه حفيد السنسكريتي) ... وفي غزنة بلغ محمود أن نائبه بالهند قد أعلن التمرد، فعاد اليه ولم يتركه حتى افتدى نفسه بأربعمائة ألف درهم .

(١٩) أحمد محمود الساداتى ص ٦٨ .

وتكاتف «داود» أمير الملتان مع «آنجبالا» صاحب لاهور و «ابن جيبال» على خلع طاعة محمود من جديد، واستنهض الأخير همه الأمراء الراجبوتيين، أشجع من عرفتهم الهند، وضمنهم راجاوات وكواليار وكالنجر وقنوج ودهلي وأجمير، وقد جمعهم على التكاتف مدى ما يتهددهم من أخطار على أيدي السلطان الغزنوي. وزحفت جيوشهم مجتمعة للقاء جند المسلمين بأرض البنجاب، ومن خلفها الشعب الهندوكي يتفاني أفراده في مدها بالزاد والعتاد في حماس بالغ دفع النساء الى تقديم حليهم في سبيل الدفاع عن الوطن، وعلى الرغم من كثرة من هلك من جند المسلمين الا أن محمودا واصل القتال برجاله في عنف وجلد بالغين مما دفع «آنجبالا» القائد الهندوكي الى الهرب فجعل بفراره صفوف جنوده تتلمس الفرار ... وهكذا قضى السلطان الغزنوي على جيوش الهند المتحدة واستولى على ماكان لديها من عتاد وكنوز، ثم انطلق من بعد ذلك قائداه عبدالله وأرسلان يطاردان فلول العدو والمدحور يومين كاملين .

واندفع محمود اثر هذا الانتصار الكبير إلى حصن «نكركت» الذي يعرف أيضا بأسم «هيمنكر» وكان يقوم على تل في منطقة السهول الغنية بسفوح الهملايا، وبه كانت تكدس الأموال الكثيرة مما كان يتقرب به الهنادكة الى أهتهم، ومالبث حراس هذا الحصن، وكانوا كهنة ينكرون الحرب وإراقة الدماء، أن استسلموا للمسلمين دون قتال ... وقد وصف العتبي مؤرخ السلطان محمود ماكانت عليه كنوز هذا الحصن من الكثرة البالغة فقال: «نقل منها (أى محمود) ما أقلته ظهور رجاله واستحمل سائرهما أعيان رجاله»^(٢٠).

والجدير بالذكر أن الهند كانت ومازالت الى قرون مضت تزخر بثروات وكنوز طائلة مما لا تكاد الأذن تصدقه .. ومن هنا فان محمودا غنم منها مغنا يتناسب مع حجم غزواته المتعاقبة ... وقد عادت هذه الغنائم على الدولة الغزنوية بالرفاهية ورغد العيش، فها هو يعود من احدى غزواته للهند ومعه أربعة آلاف بغير تكاد تنوء بما تحمله من أموال وغنائم، بل لقد كان جنده كثيرا ما يتركون خلفهم أوانى الفضة لثقلها مكتفين بما غنموا من ذهب كثير وجواهر عديدة ... ومن المشهور أن الأوانى التي كانت تزخر بها قصور الأغنياء كانت من المعادن النفيسة بل وهكذا كانت السكة المتداولة بين الناس.

(٢٠) العتبي : جزء ٢ - ص ٩٩.

وفي عام ٤٠١ هـ / ١٠١٠ كان السلطان محمود الغزنوي قد ضاق ذرعا بمؤامرات «داود» القرمطي صاحب الملتان، فعزم على سحقه بعد أن تيسر له القضاء على تمردات بلاد الغور، فما زال به حتى أوقعه في الأسر وحبسه في قلعة جوداك ، وقضى على حكومته في هذه المرة قضاء مبرما وخرّب عاصمته «المنصورة» .. كما طارد جند السلطان محمود الغزنوي «راجا بهيمبال» حفيد «جيبال» حتى كشمير وهنا يعود الفضل الى صاحبه في نشر الإسلام بهذا الاقليم الجبلي الواسع، واستطاع السلطان المسلم أيضا أن ينتزع حصن «ثيسر» من أيدي الهنادكة على الرغم من تمسكهم في الدفاع عنه فحطم ماكان به من أصنام واستولى على ما به من أموال ونفائس كثيرة .

وهكذا سخر المسلمون اقليم البنجاب كله وماحوله، فصار الطريق الى سهول الهند نفسها مفتوحا أمامهم، وهاهي دائرة نفوذهم تتسع بفضل ماكان يفد إليهم من محاربي خارسان والتركستان وبلاد ماوراء النهر الذين استهوتهم أنتصارات محمود المتلاحقة وغنائمه الوفيرة، فاتجه صوب ««قنوج»» جوهرة ولايات الهند الشمالية وأغرقها.. وما أن عبرت جنود المسلمين ««جنة»» حتى برز اليهم ««هارادانا»» راجاباران التي تعرف اليوم بـ (بلندشهر) ومعه عشرة آلاف من رجاله طفقوا على حد قول ابن الأثير، ينادون بكلمة الإخلاص طلبا للخلاص.

ولكن ما لبثت حصون ««مهادن جنة»» أن سقطت بدورها في أيدي المسلمين بعد أن من حماتها خمسون ألفا ابتلعهم النهر، ولم يطق الأمير الهندوكي ««كلجند»» وقع الهزيمة على نفسه، فقتل زوجه ثم انتحر حزنا على ماأصابه. (٢١)

ولم تشفع مقاومة أهل ««ميترا»» في شىء إذا سقطت مدينة الهنادكة المقدسة هذه وما بها من أموال في أيدي محمود .

(٢١) أحمد محمود الساداتي : المرجع السابق ، ص ٧٢ .

ثم أشرف محمود على فتح فتوح عام ٤١٠ هـ / ١٠١٩ م، وكانت أخبار انتصاراته قد سبقت إليها، فاستسلم له صاحبها «راجا بيهال» دون أية مقاومة وفتح خزائنه واستولى على كنوزه... وغداة رحيل محمود عن هذه المنطقة، أعلن الأمراء الرجبوتيين غضبهم على رئيسهم «راجا بيهال» الذي استسلم للسلطان المسلم، ونصبوا مكانه «فيدياهار بن جندلة» صاحب كلنجر يعاونه صاحب كواليار.. فما برحا براجا بيهال حتى أوقعاه في الأسر، وانتهى أمره بالقتل.

وقد أثار الخبر ثائرة السلطان الغزنوي، فارتد إلى الهند ليعاقب هؤلاء الأمراء على فعلتهم، وقد همّ محمود حين رأى حشود الهنادكة الكثيفة أن يعود دون قتالها، ولكن الله عز وجل ألقي الرعب في قلوب الذين كفروا إعزازا لدينه ونصرا لعباده المخلصين، فأنفرط عقد هؤلاء الذين في طبيعتهم الغدر، وانطلقوا فأرين لايلون على شيء.

وعاد محمود من جديد إلى الهند، في عام ٤١٢ هـ / ١٠٢١ - ١٠٢٢ م مخضعا كواليار لسلطانه، مصالحا «راجا جندله» على أموال طائلة مع طاعته.

ولئن كان غزو «قنوج» يعتبر من بين وقائع محمود الحربية الباهرة فإن فتح «الكجرات وسومنا» هو دون شك أعظم انتصاراته الهندية جميعا، فقد فاق ما لاقاه محمود من مصاعب ومتاعب في هذه الغزوة ما عاناه كل الذين سبقوه إلى دخول هذه البلاد، ومن بينهم الاسكندر المقدوني نفسه^(٢٢).

لقد انتهت هذه الواقعة، وهي آخر غزوات محمود الهندية الكبرى إلى إنزال أكبر ضربة بالأمراء الرجبوتيين، إذ ضاع من بعدها كل أمل لهم في استرداد هيبتهم السابقة بالهند، ومالبث خلفاء محمود آخر الأمر أن اضطروهم إلى الهجرة إلى المنطقة الصحراوية الوعرة التي تعرف اليوم باسمهم حيث نجح فريق منهم في الاحتفاظ باستقلاله هناك إلى حين.

(٢٢) أحمد محمود الساداتى : المرجع السابق - ص ٧٢.

فتح سومنات :

اقتحم محمود وهو في طريقه إلى الكجرات عام ٤١٦ - ٤١٧ هـ / ١٠٢٥ - ١٠٢٦ م صحراء جرداء قاحلة مترامية الأطراف واسعة المسالك هي صحراء الثار أكبر صحراوات الهند، فصار بقوة جلده وشدة بأسه وبأس رجاله مثار الدهشة والاعجاب .

وبهذه القوة وذلك الجلد استولى محمود على «أجير ونهرواله» ووجد نفسه في آخر المطاف أمام سومنات وإذا بالأمرء الراجوتيين قد حشدوا جموعهم الغفيرة لحماية معبد الهنادكة الأكبر بها، ويترأسهم «بهيم ديو» حاكم «الكجرات» ومعه راجا نهرواله وأمرء بهاتى»، والتحم الفريقان في قتال عنيف انتهى بمذبحة دامية سقط فيها خمسون ألفا من الهنادكة مَرَّ الفاتحون المسلمون على أشلائهم إلى داخل الحصون

ولهذا المعبد (سومنات) قداسة عظيمة لدى الهنادكة ، حتى إنهم بادروا من فورهم الى تجديده بعد قيام جمهورية الهند الجديدة، أى بعد مضي أكثر من تسعة قرون على تدمير محمود له.

ويصف المؤرخون معبد الهنود هذا بأنه كان بناء عجيبا ذا ست وخمسين سارية صفائحها من ذهب مرصع بالجواهر، وذا ألوف من التماثيل المصنوعة من الذهب والفضة تحيط بهيكله، وذا صنم ضخمة في وسطه مرصع بالجواهر والحجارة الكريمة الكثيرة، وقد كان الهنادكة يذهبون إليه في جموع زاخرة لاسيما عند خسوف القمر^(٢٣). وكان في هذا المعبد من السدنة مايصل إلى الألفين، ومن النسوة المنشدات خمسمائة.

(٢٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ - جزء ٩ ص ١٤٢، ١٤٣ حوادث سنة ٤١٦.

ومن البديهي أن محمودا لم يكن ليخاطر بعبور صحراء مهلكة مثل صحراء الشار هذه لمجرد تحطيم صنم أو الاستيلاء على ما بمعبد هندوكي من أموال فقط، بل للقضاء أيضا على راجا «نهرواله» وأمرء «بهاتي» اللذين عاونوا راجا «كواليار» في الدفاع عن «سومنات» ففرض عليها وهو في طريق عودته إلى عاصمة ملكه غزنة.

وقد تمثلت نهاية غزوات محمود في الهند في تلك الحملة البحرية التي قام بها لتأديب قبائل الزط المتوطنة عند الحاجز الملحي بالبنجاب وهي قبائل كان نشاطها قد اشتد بعد انقراط عقد إمارة لاهور الهندية فشرعت تعيث في الأرض فسادا وطفقت تهاجم مؤخرة جيوش السلطان محمود إبان زحفها بأرض الهند .

ولو كانت غاية محمود من غزواته الهندية على وجه العموم هي مجرد جمع الأموال فحسب - كما يقول بذلك بعض المؤرخين - لكان من السهل أن يقبل ماعرضه عليه الهنادكة من افتداء صنم سومنات بالأموال الطائلة، ولكنه أجابهم بقولته المشهورة «أنه يؤثر أن ينعتة الناس بأنه محطم الأصنام على أن يقولوا عنه أنه بائع الأوثان»^(٢٤).

(٢٤) أحمد محمود الساداتي : المرجع السابق ص ٧٤.

هنا تجدر بنا الإشارة إلى حديث المؤرخ الهندوكى براساد Prasad الذى يقول : «إن محمودا ليعدّ في نظر المسلمين حتي اليوم غازيا ومجاهدا كبيرا أخذ على نفسه مهمة القضاء على الشرك في مهاد الوثنية، وهو في نفس الوقت عند الهنادكة طاغية مخرب حطم مقدساتهم، ودمّر معابدهم، وأذى شعورهم الديني في كثير ، ولكن المؤرخ المنصف حين لا يسقط من حسابه تقاليد العصر الذى كان يعيش فيه وسماته واعتباراته ، لا يسعه إلا أن يقرر أن محمودا كان زعيما بارزا من خيرة القادة والزعماء وحاكما حازما وجنديا عبقريا من الطراز الأول، اتصف بالعدالة ورعاية الفنون والعلوم ، فهو جدير ، اذن بأن يعد من بين أعظم الملوك طرا»^(٢٥).

ولعل هذا الاعتراف من الهنادكة أنفسهم ينهض دليلا قويا على دحض افتراءات المستشرق الانجليزى ادوارد جرانفيل براون حين أخذ يكيل الاتهامات ضد هذا السلطان الغازى في سبيل الله فيقول: « طالما وصف الكتاب محمودا الغزنوى بأنه كان نصيرا كبيرا للأدب والفنون ، ولكنه في رأيي أقرب الى أن يوصف بأنه من كبار «الخطافين» لرجال الآداب والفنون»^(٢٦)

فكيف يصير محمود خطافا لـ «رجال الآداب والفنون» ؟ وهو الذى جعل من غزنة عاصمة دولته مركزا للثقافة الإسلامية بل قبله العواصم الإسلامية الثقافية في المشرق الاسلامى في ذلك الحين^(٢٧).

Prasad, Medieval india 71 - 77 (٢٥)

(٢٦) ابراهيم أمين الشواربي الترجمة العربية لكتاب الأدب في ايران من الفردوس الى السعدى - تأليف ادوارد جرانفيل براون : ص ١١١.

(٢٧) بالإضافة الى غزنة عاصمة بلاط محمود كان هناك في المشرق الاسلامي قصر الصاحب بن عباد وزير البويهيين، وكان يقيم عادة في اصفهان أو الرى وقصر السامنيين في بخارى وقصر شمس المعالي «قابوس بن وشمجير الزيارى في (طبرستان) على مقربة من بحر قزوين، وقصر ملوك خوارزم المعروفين باسم مأمون في (خيوه).

ولما فتح الحكام المسلمون ومن بينهم محمود الأبواب على مصراعها للعلماء والأدباء يكتبون وينظمون الحضارة الإسلامية، وجدنا بعض المستشرقين يشمرون أيضا عن سواعد حقدهم وكيدهم لمحمود لا شيء إلا لأنه غزا في سبيل دين الله جلت قدرته، من خلال ظروف قاسية، ودعا إلى تثبيت دعائم العلم والفكر في قرون متقدمة، فترى براون يقول ثانية «ومع ذلك لم يكن هو نفسه ليمتاز بما امتاز به هؤلاء الخصوم (يقصد أقرانه من حكام المشرق) من ذوق فني وخصال سليمة وشيم كريمة»^(٢٨).

فأى ذوق فني هذا، وخصال سليمة وشيم كريمة تلك التي يسلبونها من محمود، وبلاطه في غزته يزدهر بنجوم الثقافة الإسلامية مثل أبو الريحان البيروني صاحب «الآثار الباقية»، تحقيق ماللهند من مقولة معقولة أو منقولة، التفهيم في صناعة التنجيم^(٢٩) والذي يقول عنه براون نفسه «أنه كان رجلا غزير المعرفة، سمح الأخلاق، يمتاز بدقة النقد كما نفهمه في الوقت الحاضر»^(٣٠)، وأنه كان حريصا على تحرى الحقيقة، ذا شخصية فريدة عالية مليئة بالشجاعة والإقدام، لا يحجم عن كيل الضربات القاصمة إذا رأى الخير تحتاحه جائحة أو الحق تنزل به نازلة^(٣١).

أما ابن سينا فهو رجل آخر من كبار الكتاب والمفكرين الذين عاشوا في عصر محمود ... ولم يقتصر تأثيره في العصور الوسطى على الفكر الإسلامي فحسب بل تعداه إلى الفكر الأوربي فأثر فيه أبلغ الأثر، وقد ذكر «بروكلمان» جملة من مؤلفاته عاجلت شتى الموضوعات، ولاشك أن أشهر كتبه كتابان هما: الشفاء والقانون، وأول هذين الكتابين يقع في ثمانية عشر جزءا^(٣٢).

(٢٨) إبراهيم أمين الشواربي: المرجع السابق، ص ١١٨.

(٢٩) للبيروني كتب أخرى أغلبها مفقود، ولمعرفة المزيد عنها انظر قائمة بمؤلفاته في كتاب تاريخ الآداب

العربية - تأليف بروكلمان جزء ١ ص ٤٧٥ - ٤٧٦.

(٣٠) الشواربي: المرجع السابق، ص ١٢١.

(٣١) ولد البيروني في «خوارزم» في عام ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م، ومن المحتمل أنه مات في مدينة غزنة في ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م.

(٣٢) بروكلمان: المرجع السابق: جزء ١ ص ٤٥٢ - ٤٥٨ هـ كما نشر الأب جورج قنواتي بتكليف من جامعة الدول العربية بمناسبة العيد الألفي لابن سينا ثبنا بمؤلفاته بعنوان (مؤلفات ابن سينا) طبع القاهرة ١٩٥٠ م... كما نشرت جامعة الدول العربية أيضا (الكتاب الذهبي للمهرجان الألفي لذكرى ابن سينا في بغداد) سنة ١٩٥٢. وقد نشر الأستاذ الدكتور إبراهيم مذكور أجزاء من هذين الكتابين.

وهناك أيضا العتبي الوزير ومؤلف تاريخ اليميني والبيهقي صاحب تاريخ آل سبكتكين، والفارابي الموسيقي المعروف^(٣٣). وغيرهم من شعراء الفارسية يأتي على رأسهم الفردوسي صاحب الشاهنامه وأبعد شعراء الفرس صيتا وأخلدهم ذكرا والعنصرى والفرخى والعسجدى.

كان طبيعيا أن يكون محمود أول من يتلقب بلقب (سلطان) كما أن الخليفة العباسي على عهده (القادر بالله) خلع عليه من الألقاب ما هو كثير، فنجدته معروفا بـ (الأمير السيد، الملك المؤيد، بين الدولة، أمين المملكة، أبو القاسم محمود بن ناصر الدين أبي منصور سبكتكين ملك الشرق بجانبه^(٣٤)) كما أنه كان سني المذهب، يعترف بالسلطة الروحية العليا للخليفة بغداد^(٣٥).

الحق إذن أن محمودا كان من أعظم سلاطين المسلمين، وسّع ملكه الأول إلى سلطنة مترامية الأطراف امتدت من بهار في شرق الهند إلى فارس، وكان مما ساعد على انطلاق عبقريته الحربية اطمئنانه إلى تأمين مؤخرته حين أقبل على الهند غازيا، فضلا عن اشاعة الخلاف بين أمراء الهنداكة أنفسهم، ولا لوم عليه في ذلك، فالحرب خدعة في جزء منها.

على أنه قد تيسر لمحمود، إلى جانب ذلك كله، عون رجال الفكر اللذين تمكنت عقيدة الجهاد من أنفسهم فتفانوا في خدمته.. ومن أمثلة هؤلاء أشهر وزرائه وهو «أبو القاسم أحمد بن الحسن الميمندى» وكانوا يلقبونه بـ (شمس الكفاة) وهو الوزير الذى استشفع أكثر من مرة للبيرونى والفردوسى، وقد مدحه كثير من الشعراء المعاصرين بكثير من القصائد الجميلة^(٣٦)

(٣٣) محمد قاسم هندوشاه: تاريخ نشرته: جلد أول، ص ٣٩ طبع لكتو.

(٣٤) العتبي: تاريخ العتبي: جزء ١، ص ٣١.

(٣٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، أحداث ٤٢٠ هـ، إذ يذكر أن محمودا في نهاية حياته كان يأمر بصلب الاسماعيليين ونفي المعتزلة واحراق كتب الفلاسفة.

(٣٦) الشواربي: المرجع السابق: ص ١٢٠.

وقد ظلت اللغة العربية طوال عصر محمود الغزنوى بل ولمايتين وخمسين عاما تلت أو مايزيد قليلا هي لغة العلم ولغة السياسة والمراسلة والأدب الرفيع في المشرق الإسلامي ... ولعل لمحمود الفضل في ذلك، فقد رأى أن لغة القرآن الكريم هي التي ينبغي أن تسود من ناحية، ثم أن علاقته بالبيت العباسي في بغداد كانت تقوم على المودة والاحترام المتبادلين .

إذن فالتراث العربي في المشرق الإسلامي يدين لمحمود بالفضل من بعد الله والا لقضت عليه حركة الشعوبية التي كادت أن توتّي ثمارها في أخريات العصر الساماني بل في عصر محمود نفسه.

وقد شغف محمود بالهند شغفا زائدا وأعجبه طقس «الكجرات» خاصة، فمال إلى الإقامة الدائمة هناك ، على أن ينيب ابنه عنه بغزنه، لكن رجاله عاودهم الحنين إلى منازل قبائلهم ومراعى بلادهم الخضراء وبساتينها كما ضايقهم حر الهند وعجزوا عن احتاله^(٣٧).

وبينما يشيد مؤرخ أجنبي مثل ستانلي «لين بول» بمحمود فيقول: «إن ذلك السلطان الذى أقام تلك المنشآت الفخمة بغزنه وأقام دور العلم ورعى العلماء حتى كان يجود عليهم بما لا يقل عما يعادل مائتى ألف من الجنيهات كل عام، فضلا عما كان يجريه على طلبه العلم من الأرزاق، لا يمكن أن يكون في زمرة الطغاة البرابرة^(٣٨) تركنا نحن محمودا للافتراء من أغلب المؤرخين ومحاولة للإنصاف من أقلهم دون أن نفي نحن المسلمين بحقه علينا.

ان مايقوله لين بول صحيح، فمحمود على الرغم من جسارته وشجاعته، وكأنا به كما تقول الخنساء في أخيها صخر .

حمّال ألوية ، هبّاط أودية .. شهاد أندية ، للجيش جرار.

(٣٧) الساداتي : المرجع السابق : ص ٧٥.

38 - Lane- Poole, St., Mediev India Under Mohamedan Rule London 1917 .

كان طيب القلب يخشى الله، وكيف لا يكون كذلك وهو المجاهد الغازي في سبيله.. بل انه سرعان ما كان يندم على تصرف صدر عنه ثم وجد أنه في غير محله ... وهاتان قصتان واحدة في مجال السياسة والأخرى في مجال رعاية العلماء والأدباء تشهدان بذلك .

الأولى: فكر محمود ذات مرة في أن يضم إلى حوزته إقليبا كان يتبع الخليفة العباسي القادر بالله مباشرة فكتب إليه - وهو صاحب الكلمة الأولى في العالم الإسلامي عندئذ - يقول: بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، اصدر أمرا بضم هذا الاقليم اليّ، وإلا سحقته بأقدام الفيلة، فرد عليه الخليفة قائلا: «بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين، أما بعد، ألم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

احترار محمود ورجال بلاطه في فك لغز هذه الرسالة المقتضبة وفي النهاية وقف من يدعى عبدالله الجهانباني قائلا: سيدى كنت قد هددت الخليفة بالفيلة، وها هو يرد عليك بسورة الفيل، ألم تتركف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم في تضليل، فأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول» وهنا بكى محمود خشية من الله، وأرسل الى الخليفة يعتذر له. ووصل الجهانباني وخلع عليه الخلع المختلفة^(٣٩).

والثانية : أن محمودا تأثر كثيرا ببيت من الشعر كان الشاعر الفردوسي قد أورده في شاهنايته، عندما اعترض طريقة تأثر من الثوار تحصن في قلعة منيعة وهو في طريقه من بلاد الهند إلى عاصمته غزنة، ولما ذكره به وزيره الميمندى، أحس محمود أنه قد ظلم هذا الشاعر، وندم عما بدر منه نحوه، وقال للوزير: «لقد بقي هذا الرجل النبيل (يقصد الفردوسي) محروما من نوالي، فذكرني بأمره بمجرد عودتي إلى غزنة حتى أرسل إليه شيئا «فلما وصل الوزير إلى مدينة غزنة، ذكّر محمودا بشأنه فقال السلطان له :

(٣٩) أنظر كتاب دراسات ومختارات فارسية لكاتب المقال وآخرين ، الجزء الخاص بالنصوص .

مر لأبي القاسم الفردوسي بستين ألف دينار تعطى له من أصباغ «النيلة» ولتحملها إليه في طوس الإبل السلطانية، ومر رجالي أن يسألوه المعذرة (٤٠).

هذا هو محمود السلطان القوى الطيب الجسور المتسامح المجاهد في سبيل الله والخاشي من الله .

لا عجب إذن في أن يعجب شعراء الفرنجة بشخصية محمود التي جمعت بين الإيمان والجرأة في الحق والصمود أمام إغراء المال، فنجد الشاعر «لؤلؤ» ينظم فيه هذه القصيدة تحت عنوان «ثم تحطم الصنم» وترجمتها :

للأحداث القديمة معاني جديدة
ولن يقدر البقاء لشيء من الماضي
سوى ما أحدث صدى
في قلوب البشر جميعا
حدث مرة لمحمود محطم الصنم وناشر الاسلام
أن وقع وهو في سومنة في محنة

كما تقول الروايات
ففي بهو المعبد الكبير
انتصب الصنم كالوحش الكريه
ضم من الفرانيت على عرش من الفرانيت
وهو الصنم الذي يهيمن على معبد !!
وصمت محمود (مترددا) بضع لحظات .
وهو يتأمل وجه الصنم الصامت
الذي كانت عيناه الجاحظتان
تملآن المكان رهبة
وركع البراهمة أمامه

(٤٠) يمكن مراجعة تفصيل قصة الفردوسي مع السلطان محمود الغزنوي في الترجمة لكتاب تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، تأليف براون وترجمة الشواربي ص ١٥٦ وما بعدها.

بعد أن شجعهم صمته
وتعهدوا بدفع فدية عظيمة
من جواهر وقطع ذهبية لا تحصى
ومع أن السلطان كان يعتبر الذهب عرضا رخيصا
فقد كان يعرف قيمته المادية.
وذلك لأن جذور السلطة
تتغذى بلبانه .
قال محمود : لو كان الأمر
بمجرد أمر حجر لرضيت .
لكن الأمر يعدو ذلك
الى التهاون في الحق
المنال والسلطان عرض زائل .
تحت رحمة الزمن
أما حماة الدين
فإنهم ثابتون كالطود
ضياح المنصب
والحياة والتاج - كله يهون
ولكن مالا يمكن تعويضه.
هو أن يخسر المرء نفسه
وهكذا أشهر (محمود) سلاحه
وضرب الصنم على الأرض
وصار حطاما .
وعلى أرض المعبد كان الكهنة
قد ضاعفوا الفدية خمسين مرة^(٤١)

(٤١) عن مقال للدكتور محمود زايد نشر بصفحة أدب وشعر، جريدة الشرق الأوسط الاثنين ٧ محرم ١٤٠٠ هـ/
١٩٧٩/١١/٢٦ م - السنة الأولى - العدد ٧.

ولم تحرك سيرة هذا السلطان العظيم همة الشاعر «لؤلؤ» فقط بل تعدته إلى شعراء آخرين من الفرنجة، فهذا هو الشاعر الانجليزى الرومانتيكي «لي هنت» (١٧٨٤ - ١٨٩٥ م) يقول في قصيدة له بعنوان «محمود» نظمها في عام ١٨٢٣ م ما ترجمته^(٤٢):

- ليكن المجرم من كان . انسى أعرف واجبي
- لكنى أخشى عاطفة الأبوة إذا حدث الأسوأ
- ولهذا أطفأت النور، لم أكد اتبين
- وجهه ، لم أكد أعرف أنه غريب عني
- حتى خررت ساجدا ، وشكرت العلي القدير
- فقد امتثلت لأوامره في بحر من الألم والخوف^(٤٣).

ولعلنا بعد ذلك نجد أن محمود الغزنوى جدير أن يحرك فكر مؤرخينا المسلمين، فيتجهوا الى درسه وابرازه ، وقمين أن يستهلم خيال الشعراء المسلمين لتخليد أعماله .

(٤٢) نقلت هذه الترجمة عن الدكتور محمود زايد في مقاله المنشور بجريدة الشرق الأوسط العدد ٢٦ الصادر في ١٩٨٠/٤/٧ م.

(٤٣) تدور فكرة هذه القصيدة حول قصة عدل السلطان محمود فقد حدث مرة أن قبض رجاله على أحد المجرمين واستحق الموت، فتردد طيلة ثلاثة أيام قضاها صائها في السؤال عن هوية المجرم خشية أن يكون أحد أبنائه، فتنقلب عاطفة الأبوة على ضرورة العدل. وأخيراً أمر باحضاره وتنفيذ الحكم فيه، ولكن في الظلام وبعد أن جرى تنفيذ الحكم وأعيدت الأنوار ورأى المجرم خرمحمود ساجدا لله لأنه لم يكن ابنه .

خلفاء محمود الأقوياء في غزنة وشبه القارة الهندية :

توفي السلطان محمود الغزنوي عام ٤٢١ هـ / ١٠٣١ م بعد أن أوصى بملكه لابنه محمد جلال الدولة دون ولده الأكبر مسعود^(٤٤).

كان على مسعود أن يرفض تنفيذ الوصية، فيكتب إلى أخيه السلطان الجديد أن يقره على الجزء الذي كان قد تولى فتحه، وهو طبرستان وأصفهان وماحوله، بل وأن يقدمه على نفسه في الخطبة، وطبيعي أن يرفض محمد مطالب مسعود بل نراه يعزم على محاربته على الرغم من نصيحة المخلصين حوله^(٤٥).

والواضح أن محمد جلال الدولة كان ضعيفا، اذ سرعان ماغدرت به جند غزنة، وزجت به في السجن .. وكتب قوادهم إلى مسعود يستد عونه، وكانوا يفضلونه على أخيه لشجاعته وطموحه .

وقد كان من الممكن أن يواصل مسعود خط أبيه محمود في توسيع رقعة الدولة ونشر الاسلام في مناطق جديدة لولا أنه كان يعرض عن الاستماع لنصح وزيريه المحنكين أبي القاسم بن حسن الميمندي وأحمد بن عبدالرحمن، وذلك أمر عجل بتقويض الدولة الغزنوية المترامية الأطراف.

كان السلطان مسعود قد أرسل قائده أحمد بن ينالتكين حاكما على بلاد الهند، وقد مد هذا القائد نفوذه إلى بنارس، ولكن ماغنمه فيها من كنوز وأموال كثيرة جعل الحقد

(٤٤) في عام ٤٠٦ هـ / ١٠١٦ م كان السلطان محمود قد عهد لمسعود بولاية العهد ونصبه حاكما على هراة، وكلفه بمحاربة الغوريين، وعلى الرغم من أن مسعودا ابل بلاء كبيرا إلا أن أباه استجاب لوشاية الواشين وعزله ... ثم عفا عنه، وأعادته الى هراة دون ولاية العهد .

(٤٥) البيهقي : تاريخ البيهقي، ص ٨١ ومابعدا.

والحسد يحرفان طريقهما إلى قلب شريكه في إدارة الاقاليم الهندية عبدالله قاضي شيراز فطفق يبعث برسائله تترى إلى البلاط الغزنوى طافحة بالتهم لقائد مسعود بالهند، وزاد من تأثر مسعود لهذه الوشائات أن اعداء ابن ينالتكين قد أشعلوها عداوة وصوروها على أنها رغبة جامحة في الاستئثار بالسلطة واستقلال بها .

والحق أن مسعودا تريت هذه المرة قبل أن ينتهى الى رأى قاطع في شأن نائبه على الهند. ولكن وصلته أخبار مؤداها أن المعارك قد احتدمت بين ينالتكين وقاضي شيراز الذى أفلح في تأليب أهل البنجاب على منافسه، وهنا خشي السلطان من استفحال الأمور ، فسير قائدا من الهنادكة الذين أسلموا يدعى «تلك»^(٤٦) كان مشهورا بالشجاعة وقوة الشكيمة^(٤٧). بحيث أنه ما أن وصل الى لاهور حتى انفض بنو جلدته من حول ينالتكين وتركوه يحارب ومعه بقية ثبتت على مبدأها إلى أن قتلوا بسهام فريق من قبائل الزط وسيوفهم طمعا في المكافأة المالية التى رصدها «تلك» لمن يأتيه برأس غريمه^(٤٨).

والواقع أن مسعودا قد خسر باستجابته للوشاة قائدافذاهو: أحمد بن ينالتكين في معاركه ضد السلاجقة الذين شرعوا يهددون حدود الدولة الغزنوية من ناحية الغرب .

وفي أوائل عام ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧م أراد السلطان مسعود الغزنوى أن يحقق حلما كان قد راوده بالاستيلاء على حصن «هانسي» الهندوكي فلم يبلغه الا في أواخر ربيع الأول من العام نفسه ، واستطاع أن يسيطر عليه بعد قتال عنيف، ثم يتجه صوب «سنبات» الواقعة في شمال دهللي، وأصاب فيها مغانم كثيرة .

وقد انتهز السلاجقة فرصة سفر مسعود الى الهند، وهاجوا بقيادة زعيمهم طغرل الدولة الغزنوية، واستولوا على نيسابور ثم بسطوا نفوذهم على خراسان ضاربين عرض

(٤٦) كان تلك هذا صبيا حسن اللقاء ذا خط حسن في اللغتين الهندية والفارسية وقضى فترة طويلة في كشمير يتعلم ويدرس ثم اتصل بقاضي شيراز «أبو الحسن» حيث تألق نجمه (أنظر البيهقي ص ٤٠٦ ومابعدا).

(٤٧) البيهقي : المرجع السابق ، ص ٤٣٠.

(٤٨) البيهقي : المرجع السابق ص ٤٦٠ ، ٤٦١ .

الحائط بما كان بينهم وبين مسعود من موثيق كانوا قد التزموا بها بعد هزيمته لهم عام ٤٢٤ هـ/ ١٠٣٢ م.

وقد منى مسعود بهزيمة حاسمة على يد السلاجقة في شهر رجب من عام ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م في موقعة «دندا نقان» على مقربة من مرو، ولاشك في أن هذه الموقعة هي التي أعلنت تقويض ملك الغزنويين في خارج الهند وداخلها .

ذلك أن مسعوداً أصر على الاتجاه الى الهند في مسيرة من أهله واعوانه هادفاً جمع جيش قوى يستعد به لملاقاة السلاجقة، ولكن لم يكد يعبر السند بالغيا قلعة «هاريكله» بين أتوك ورو البندى حتى وثب عليه غلمان من الهنود والأتراك طمعا في خزائنه. وحبسوه في القلعة، ونادوا بأخيه محمد الكفيف سلطانا، وظل على هذا الحال حتى قتله ابن أخيه الأمير أحمد في عام ٤٣٣ هـ/ ١٠٤١ م.^(٤٩)

وبموت مسعود طويت صفحة حاكم مسلم اكثرت كثيرا بالعلم والعلماء والتفت الى الانشاء والتعمير حتى غصت بلاده بالكثير من المدارس والمساجد والنزل التي أقامها .

لقد استطاع هذا السلطان أن يحتفظ مدة غير قصيرة برقعة ملكه التي امتدت في وقت من الأوقات من العراق حتى حدود الهند الشرقية ولكن القدر، على حد زعم مؤرخه البيهقي^(٥٠)، دفعه إلى الوقوع في الخطأ الذي قرر مصير دولته عندما قرر الرحيل الى الهند بعد واقعة «دندانقان» بدلا من التحصن في غزنة ومحاولة دفع السلاجقة عن حدوده .

ذلك أن توالي الأحداث قد برهن أن مخاوفه لم تكن على أساس فقد كان هم السلاجقة في التوسع يتجه في الواقع نحو فارس دون اكرثا جدي نحو غزنة والشرق عموما، فقد كانت مراعى خراسان أحب إليهم وأفضل من تلال الأفغان وما خلفها... هذا غير بلاد فارس التي كانوا قد استولوا عليها ثم أخذوا يتوسعون في فتوحاتهم حتى بلغوا شواطئ البحر الأبيض المتوسط .

(٤٩) أحمد محمود الساداتي : المرجع السابق ، ص ٨٠.

(٤٩) أحمد محمود الساداتي المرجع السابق ، ص ٨٠ .

(٥٠) البيهقي : المقدمة ، ص ٣٧ ، ٣٨.

انقراض الدولة الغزنوية :

لم يستمر السلطان محمد الكفيف على عرش غزنة كثيرا، اذ سرعان ما طالبه مودود بن السلطان مسعود بالتنازل، بل دخل معه في معركة حربية عند «الدينسور» على الطريق بين كابل وپشاور، وطبيعي أن تكون الهزيمة للسلطان الكفيف، ولم يكتف مودود بالهزيمة فأخذ ينتقم من كل من خانوا أباه مسعود.

وبينا كان لانتصار مودود نتائج ايجابية من حيث دفع الاهالي في الاقاليم الغزنوية إلى الثورة على السلاجقة الذين كانوا قد احتلوا بعضها بل واخراجهم منها^(٥١) نجد أن من نتائج هذا الانتصار السلبية ذلك العصيان الذي تزعمه مجددود حاكم البنجاب، اذ أعلن الاستقلال بهذه المنطقة، وتوجه بقواته قاصدا محاربة أخيه السلطان مودود، غير أن الأجل وافاه عند لاهور .

وقد شجع هذا العصيان من جانب مجددود بعض أمراء الهنادكة فشرعوا في الثورة ، ووصلوا لاهور ، الا أن جنود الغزنويين تمكنوا من صدهم، وإعادة هيبة ماتقوض من نفوذ المسلمين في شمال شبه القارة الهندية كله .

وبعد هذا الانتصار شرع مودود يعد العدة لمواجهة السلاجقة الذين حسبوا حسابه . وكيف لا: وهو الذي استرد منهم ماأخذه من أقاليم غزنوية ، ولكن القدر أجاب سريعا على مابداخل الطرفين من رغبات فقد مات مودود عام ٤٤١ هـ/ ١٠٤٩ م.^(٥٢)

(٥١) كان السلاجقة في أول الأمر عبارة عن جنود مرتزقة عرفوا بالجرأة والكبرياء، والاستهانة بغيرهم مما اضطر محمود إلى سلوك سبيل العنف معهم. وقد سلك معهم مسعود سياسة غير رشيدة عندما أراد الاستعانة بهم لتقوية جيشه، وهنا تفاقم خطرهم وانتهى الأمر بالسيطرة على ملك الغزنويين. أنظر البيهقي - المقدمة. ص ٢٤ ، ٢٥.

(٥٢) الشواربي : المرجع السابق ، ص ٢١٣ .

وبموت مودود، يظهر على المسرح الغزنوي جماعة من الأمراء الضعاف، يتناحرون ويتقاسمون فيما بينهم الكيان الغزنوي، وهم بذلك يمهّدون الطريق أمام السلاجقة لأخذ مكانهم في التاريخ من حيث لا يدرون .

فإذا كان إبراهيم بن مسعود قد أفلح لدى ارتقائه العرش من تنظيم شئون الدولة، وألزم قبائل الترك والأفغان الطاعة وأقر الأمور في الهند، وهادن السلاجقة، فإن خليفته علاء الدين مسعود قد فتح الباب على مصراعيه للسلاجقة، بمصاهرته للسلطان سنجر السلجوقي الذي ظهر بجنده في غزنة على إثر وفاة علاء الدين وأنزل عن عرشها الأمير أرسلان تلبية لدعوة أخته أرملة السلطان الغزنوي الراحل ... وكانت على خلاف مع هذا الأمير الجديد الذي اضطر بعد ذلك إلى النزوح إلى الهند حيث مات هناك عام ٥١١ هـ - ١١١٧ م^(٥٣).

معنى ذلك أن الوصاية من السلاجقة أصبحت قائمة في غزنة عاصمة الغزنويين، ولكن الأمير بهرام المرتقي عرش الغزنويين في ظل السلاجقة يحاول الإفادة من تحول السلاجقة إلى فارس، ويجتهد في تغيير الأوضاع بقدر ما يستطيع إلى ذلك سبيلا، فيخمد الفتنة في الهند، ويدفع أمراء الهنداكة عن لاهور فتهدا الأمور في البنجاب والمثلتان .

إذن فبهرام بهذا الاجتهاد يريد استعادة ماضع من نفوذ الغزنويين حتى ولو من خلف ظهر دولة السلاجقة الفتية، ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن ... فقد اصطدمت جهوده مع مطالب ملوك الغور^(٥٤) الذين كانوا ينزلون فيما بين غزنة وهراة ، وساعدوا السلطان محمود الغزنوي خير مساعدة في حروبه الخالدة من أجل نشر الإسلام في شبه القارة الهندية ... ولكنهم مع ذلك لم يترددوا في الخروج على خلفائه في فترات الضعف التي حاقت بالغزنويين.

(٥٣) أحمد محمود الساداتي : المرجع السابق، ص ٨٣.

(٥٤) هم ملوك جبال الغور في الشمال الشرقي من إيران، وقد ورثوا حكم الغزنويين ثم دولة ملوك خوارزم أو حكام خيوه وهي الدولة التي أصبحت أكبر خصم للسلاجقة عند تولي أتر في عام ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م، وكذلك سلاجقة كرمان الذين كانوا يحكمون بغير منازع في الولايات الجنوبية من إيران .

ويبلغ التوتر اقصاه بين الغزنويين والغوريين حين يأمر بهرام بقتل زعيم غوري يدعى الأمير «سوري» فلم يطق الغوريون ماحدث ويفلح زعيمهم «علاء الدين حسين» في دخول غزنة ، غير أن بهرام سرعان ما يسترد العاصمة .

مات بهرام عام ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م ، ويخلفه ابنه خسرو الذي يفر إلى الهند في أثر اقتحام قبائل التركمان للعاصمة غزنة وبعد هزيمتهم للسلطان السلجوقي سنجر^(٥٥) . وينتهاز الغوريون الفرصة ويؤكدون وجودهم بالقضاء على قبائل الغزو التركمانية ، ويبسط زعيمهم غياث الدين بن سام سلطانه على غزنة ومنطقة كابل ، ويعهد بالأمر في المنطقتين إلى أخيه معز الدين بن سام الذي تذكره كتب التاريخ باسم «محمد الغوري» .

ورغبة من الغوريين في القضاء نهائيا على الدولة الغزنوية ، فإنهم يتعقبون آخر من يمكن المطالبة بحقوقها في زعامة هذه الدولة وهما خسرو وابنه بهرام شاه الثاني ، فما زالوا يطاردونها بالهند حتى قضوا عليهما ، وبذلك انتهت سيرة دولة عمرت قرنين من الزمان وكان لها شرف تأكيد الوجود الاسلامي في شبه القارة الهندية متابعة في ذلك جهود القادة الأوائل من العرب المسلمين في زمان الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين ومن بعدهم خلفاء بنى أمية الذين يعود إليهم فضل اتساع رقعة العالم الاسلامي .

(٥٥) هو سادس سلاطين السلاجقة العظام ، امتد حكمه من عام ٤٩٠ - ٥٥٢ هـ / ١٠٩٦ - ١١٥٧ م .. تولي في بداية حياته امانة خراسان وما وراء النهر وقد شهدت فترة امارته فتوحات كبيرة في ما وراء النهر ثم تمكن من فتح غزنة عاصمة الغزنويين عام ١١١٧/٥١١ م ، وقد تعرض في أخريات حياته الى هزائم متكررة على يد قبائل الغز ، وهم من الأتراك المقيمين فيها وراء النهر إلى حد أنهم أسروه في واحدة من المعارك العسكرية .. وكان سنجر سلطانا شجاعا وكرما ومحبا للرعية وراعيا للعلم والأدب . (دورة تاريخ ايران از آغا زتا انقراض قاجاريه ، تأليف حسن بيرنيا مشير الدولة وعباس اقبال أشتياني جزء دوم ص ٣٥٠ وما بعدها) .